الفصل الخامس

قصة إسلام
صهيب الرومي رضي الله عنه

قصة إسلام صهيب الرومي رضي الله عنه

٢٥

الصحابيُّ المؤمنُ المجاهد (صُهَيْبُ بنُ سِنَان) الرُّوميُّ، أحدُ المؤمنين المستضعفين، السابقين إلى الإسلام، أسلم رضي اللَّه عنه، مع أوائل من أسلم من المسلمين، وكان قد قدم من (بلاد الروم) إلى مكة، فلما وصل إليه خبرُ نُبوَّة محمد ﷺ، دخلَ في دين الإسلام، عن صدقٍ وإخلاص، وهو أحد الثلاثة الأبطال، الذين نالهم أشدُّ أنواع العذاب والبلاء، من صناديد الكفر والضلال (بلالٌ، وصهيبٌ، وسلمانُ) بسبب إيمانهم واعتناقهم للإسلام.

هاجر (صهيبٌ) إلى المدينة المنورة، في جملة من هاجر إليها، بعد أن اشتدَّ العذابُ على المؤمنين، وأذنَ لهم رسولُ اللَّه ﷺ في الهجرة..

ولقصَّةِ هجرته شأنٌ غريب، يستدعي منَّا الوقوفَ طويلاً، أمام هذا الإيمان، وأمام هذه التضحية بالمال، بل بكل ما يملك من ثروة، حفاظاً على دينه وإيمانه، فكانت هجرتُه مضربَ المثل في (التضحية) بالنفس والمال، نصرةً لدين اللَّه!

هجرة صهيب رضي اللَّه عنه إلى المدينة

يقول أهل السير: لمَّا اشتدَّ البلاءُ من المشركين على المسلمين، وضيَّقوا على أصحاب النبي ﷺ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه، من الشَّتْم، والأذى، وأنواع العذاب والبلاء، استأذن أصحابُ الرسولِ النبيَّ ﷺ أن يأذن لهم في الهجرة، فأذن لهم ﷺ فيها، فخرج الكثيرِ منهم، ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول اللَّه ﷺ إلَّا متخفِّياً، غيرَ (عمرَ بنِ الخطَّاب) رضي اللَّه عنه، فإنه لمَّا همَّ بالهجرة، تقلَّد سيفَه، وحَمَلَ قوسه، ومضى نحو قريش، وقال: شاهت الوجوهُ، لا يُرْغِمُ اللَّهُ إلَّا أُنوفكم، من أراد أن تَثكلَه أمُّه، أو يُيتِّم ولدُه، أو تُرمِّلَ زوجتُه، فليلقني وراء هذا الوادي!!

فلم يتبعه أحدٌ من المشركين، خوفاً من بأسه وقوته.!

أمَّا (صهيب الرومي) فقد تحيَّن وقتَ الليل، فخرج مهاجراً ولم يحمل معه إلَّا زادَه وسلاحَه، وترك مالَه في مكة، وشعر به جماعةٌ من قريش، فلحقوه وساروا على أثره، ليردُّوه ويمنعوه من الهجرة.

قصة هجرته وما نزل من القرآن فيه

ورُوي في قصة هجرته (أنَّ صهيباً رضي اللَّه عنه، لمَّا أراد الهجرة إلى المدينة المنورة، ركبَ راحلته، وحملَ سلاحه، ومضى مهاجراً في سبيل اللَّه، فلحقه نفرٌ من قريش، من المشركين، ليمنعوه من الهجرة، ويردُّوه إلى مكة، فلمَّا أحسَّ بهم، نزل عن راحلته، ونَثَر ما في كنانته من السِّهام، وأخذَ قوسَه، ثم قال لهم:

تعلمون يا معشرَ قريش، أنني من أرماكم رجلاً ـ أي لا أُخطئ الرميَ ـ فواللَّهِ لا تصلونَ إليَّ، حتى أرميَ بما في كِنَانتي، ثم إذا نفِدتْ سهامي، أضربُ بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ـ أي حتى يتكسَّر ـ ثم افعلوا بي بعد ذلك ما شئتم!!

فقالوا له: لقد جئتنا صُعْلوكاً ـ أي فقيراً ضعيفاً ـ لا تملك شيئاً من المال، وأنت اليوم ذو مالٍ كثير، فكيف نتركك تخرج بمالك!؟

فقال لهم: **يا معشر قريش**، ليس معي هنا مال، وقد تركتُ مالي بمكة، أرأيتُمْ إنْ دللتكُم على مالي، هل تُخلُّونَ سبيلي، وتتركونني أهاجر؟ قالوا: نعم، فدلَّهم على ماله في مكة، وقال لهم: وضعتُه في مكانِ كذا وكذا، ولمَّا عرفوا صِدْقَه تركوه، فانطلقَ مهاجراً في سبيل اللَّه!!).

استقبال الرسول له ببالغ الابتهاج والسرور

ولمَّا وصل المدينة المنوَّرة، كان خبرُه قد سبقَ إلى رسول اللَّه ﷺ، بطريق الوحي، فاستقبله رسولُ اللَّه ﷺ والمؤمنون يقولون له: رَبِحَ بيعُك يا صُهَيبُ، ربحَ بيعُك يا صُهَيبُ!! وأنزلَ اللَّهُ في حقِّه هذه الآيةَ الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] [البقرة: ٢٠٧].

وفي رواية أن الرسول ﷺ قال له: (ربحَ البيعُ يا أبا يحيى! ربح البيعُ يا أبا يحيى) وهذه كنيةُ صهيب رضي اللَّه عنه.

---

(١) الحديث رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم.

هذا الصحابي المؤمنُ، ضحّى بماله في سبيل عقيدته وإيمانه، وخرج من مكة مهاجراً إلى اللّه ورسوله، وتركَ ما يملك من ثروة لأعداء اللّه، الكفار الفجار، لقاءَ الهجرة إلى دار الإيمان، فهنيئاً له بهذه الهجرة، وهنيئاً له بهذه الصفقة، التي عاد منها بالربح الجزيل.

الهجرة برهان الإيمان الصادق

لقد هاجر المسلمون، وضحّوا بأموالهم وأنفسهم، نصرةً لدين اللّه، لأنهم عرفوا أن الدينَ أغلى من الدنيا، وأن حبَّ اللّه ورسوله، أسمى من حبّ المال والولد، وقرءوا قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] فلذلك هانَ عليهم بذلُ المال، وتركُ الوطن، وهانت عليهم التضحيةُ بكل شيء يملكونه، نصرةً لدينِ اللّه، وإيثاراً للآخرة على الدنيا ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]!!

رحمَ اللّهُ صهيباً على مجاهدته وجهاده، وتضحيته بما له نصرةً لدين اللّه، ورحمَ اللّهُ المهاجرين والأنصار، ممن ضربوا أروع الأمثلة، في الصبر على الأذى، وتحمل المشاقّ، وبذل الغالي والثمين من أموالهم، لتبقى راية الإسلام خفّاقة عالية، تهون في سبيلها كلُّ التضحيات، بالأنفس والأموال، وجزى اللّه صهيباً خير الجزاء، على مجاهدته وصبره، وأسكنه اللّه فسيح جناته، وجمعنا معه تحت لواء سيد المرسلين بمنّه وكرمه إنه نعم المولى ونعم النصير!!

فريضةُ الهجرة في بدء الدعوة

كانت الهجرةُ مفروضةً على المسلمين، لا سيَّما في بدء الدعوة الإسلامية، حيث كانوا لا يستطيعون إقامةَ شعائر الدين في مكة، فأُمروا بالهجرة، حفاظاً على دينهم، ونزَلَ الوعيدُ والتهديد، للذين آثروا البقاءَ تحت سلطان الشرك وجبروته، ولم يهاجروا في سبيل اللّه، وذلك في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قصة ضمرة بن القيس رضي الله عنه

٢٦

هذه قصة من غرائب القصص، تشير إلى مكانة الجهاد الجليلة، في قلوب المؤمنين الصادقين.

فإنه لمَّا نزلت هذه الآية، وفيها الوعيدُ الشديد، لمن ترك الهجرةَ مع استطاعته لها، كان في مكة رجلٌ كبيرُ السِنِّ يدعى (ضَمْرةَ بنَ القَيْس) فقال لأولاده: احْمِلوني إلى المدينة المنورة، واللَّهِ لا أبيتُ اليومَ بمكة، وإني لأهتدي إلى الطريق! فقال له أبناؤه: لقد عَذَرك اللَّهُ فأنت من المستضعفين، لا هجرة عليك! فأقسمَ أن لا يبيت بمكة، فحملوه على سرير، ووضعوه على البعير، ثم خرجوا به إلى المدينة، فماتَ في الطريق بالتنعيم، قريباً من مكة المكرمة، ولم تكتمل له الهجرةُ إلى المدينة المنوَّرة.

ما نزل من القرآن في قصة ضَمْرة

فقال بعضُ الناس: ذهبَ أجرُه لأنه لم يصل إلى دار الهجرة، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]

أي ثبت له الأجر الكامل (أجر الهجرة) لأنه عَزَم عليها، وخرج مهاجراً طلباً لرضوان اللَّه، فاللَّه لا يُضيع له أجْرَ هذا الخروج.

وهذه الآية ترغيبٌ في الهجرة، لكلِّ من لم يستطع أن يقيم شعائر دينه، في وطنٍ من الأوطان، فيجب عليه أن يهاجر من ذلك البلد، إلى بلدٍ يستطيع أن يعبدَ اللَّهَ فيه، دون أذى أو ضرر، فأرضُ اللَّه واسعة.

ولذلك تتابع المسلمون في الهجرة إلى المدينة، حتى لم يبق بمكة منهم إلَّا (رسولُ اللَّه ﷺ، وأبو بكر، وعليٌّ) أو مريضٌ، أو معذَّب مسجون، أو ضعيفٌ

عند الخروج لعلَّةٍ من العِلَل، وتأخرت هجرة الرسول ﷺ ليطمئن على خروج المؤمنين المهاجرين.

التضحية بالمال والنفس نصرة للدين

وهذا هو المثل الكامل في قصة (ضَمْرة)، للمسلم الذي أخلص الدين لله، لا يبالي بالوطن، ولا بالمال، ولا بالولد، في سبيل أن يَسْلَم له دينُه.!

وأمَّا بعد (فتح مكة)، ودخول الناس في دين اللَّه أفواجاً، فقد عزَّ الإسلام وانتصر، وصار للمسلمين دولةٌ ووطن، فقد انتهى حكم الهجرة من مكة، وقال رسول اللَّه ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح ـ أي فتح مكة ـ ولكنْ جهادٌ ونيَّة، وإذا استُنْفِرْتم فانفروا)[1].

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة

ولمَّا هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة، جاء (أبو بكر) رضي اللَّه عنه يستأذن رسول اللَّه ﷺ في الهجرة، فقال له الرسول الكريم: على رِسْلكَ يا أبا بكر ـ أي تَمهَّلْ ـ فإنِّي أرجو أن يُؤْذنَ لي!!

فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلكَ ـ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسول اللَّه؟ ـ أي أفديك بأبي وأمِّي ـ قال: نعم.!

فحبسَ (أبو بكر) نفسَه على رسول اللَّه ﷺ ليصحبه في هجرته، وكان ذلك أثمنَ شيء عنده في الحياة، ليحظى بشرف الصحبة في هجرته مع رسول اللَّه ﷺ.!

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

الهجرة النبوية كما رواها البخاري

٢٧

ويروي لنا الإمام البخاري رحمه الله هجرة النبيّ ﷺ، وبصحبته (أبو بكر) بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

(بينما نحن جلوسٌ يوماً في بيت أبي بكر، في حَرّ الظَّهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسولُ الله متقنّعاً ـ أي متستّراً عن عيون المشركين ـ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها!!

فقال أبو بكر: فدىً له أبي وأمّي، واللهِ ما جاء به في هذه الساعة، إلّا أمرٌ ـ أي أمرٌ هامٌ جليل ـ!!

قالت: فجاء رسولُ الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له فدخل.!

فقال النبيُّ ﷺ لأبي بكر: أَخْرِجْ من عندك ـ لأنه يريد أن يخبره بالأمر سرّاً ـ فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك، بأبي أنت يا رسول الله!!

فقال له رسولُ الله ﷺ: إنه قد أُذِن لي في الخروج ـ يعني الهجرة ـ.

أبو بكر يطلب الصحبة مع الرسول ﷺ

فقال أبو بكر: الصُّحْبةَ يا رسولَ الله!! فقال له الرسولُ ﷺ: نعم.

فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنتَ يا رسولَ الله، إحدى راحلتيَّ هاتَيْن ـ أي إحدى الناقتين ـ قال رسولُ الله: بالثَّمن.!

قالت عائشة: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز ـ أي أحسن تجهيز ـ وصنعنا لهما سُفْرةً في جِرَاب ـ أي كيس ـ فقطعتْ أسماءُ بنتُ أبي بكر من نِطاقها، فربطتْ به على فم الجراب، فبذلك سُمِّيتْ ذاتَ النِّطاق ـ وأسماءُ هذه أختُ عائشة رضي الله عنها ـ.

قالت عائشة: ثم لَحِقَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر (بغارٍ في جبلِ ثَوْر) فكمَنا ـ

أي اختبأ ـ فيه ثلاث ليالٍ، يبيت عندهما (عبدُ اللَّهِ بنُ أبي بكر) وهو غلامٌ شابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ـ أي حاذقٌ فَطِنٌ سريعُ الفهم ـ فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريشي بمكة كبائتٍ فيها ـ أي كأنه كان نائماً في مكة ـ فلا يسمع أمراً من قريش، يُكادانِ به، إلَّا وَعَاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلامُ . .) الحديث[١].

وهو حديث طويل رواه البخاري بسنده عن عائشة رضي اللَّه عنها.

تكليف عليٍّ بردِّ الأمانات إلى أصحابها

وقبل أن يهاجر رسول اللَّه ﷺ ذهب إلى (عليِّ بن أبي طالب) رضي اللَّه عنه، فأمرَهُ أن يتأخَّر بعده بمكة، حتى يؤدِّي عن رسول اللَّه الودائع، التي كانت عنده للنَّاس، إذْ لم يكن أحد من أهل مكة، له شيء ثمينٌ يَخْشَى عليه، إلَّا استودَعَه عندَ رسولِ اللَّه ﷺ، لما يعلمون من صدقه، وأمانته.

أبو بكر يصحب ماله عند الهجرة

وروى أحمد وابن إسحاق: عن أسماءَ بنت أبي بكر أنها قالت: (لمَّا خرج رسول اللَّه ﷺ، وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر مالَه كلَّه معه (٥٠٠٠) خمسة آلاف درهم، وانطلقَ بها معه.

قالت: فدخل علينا جدِّي (أبو قُحَافة) وقد ذهبَ بصرُه، فقال: واللَّهِ إني لأَرَاه قد فَجَعكم بمالِه مع نَفْسِه!! **قالت**: كلَّا يا أبتِ، إنه قد تَرَكَ لنا خيراً كثيراً!!

قالت: فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كُوَّةٍ في البيت ـ أي فتحة في الحائط ـ التي كان أبي يضع مالَه فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذت بيده.

فقلت: يا أبتِ ضَعْ يدَكَ على هذا المال! قالت: فوضَعَ يده عليه.

فقال: لا بأس، إذا كان قد تَرَكَ لكم هذا، فقد أحسَنَ، وفيه ما يكفيكم!!

تقول: ولَا واللَّهِ ما ترك لنا شيئاً، ولكنِّي أردتُ أن أُسْكِتَ الشيخَ بذلك[٢]. !

لماذا كانت هجرة النبي ﷺ خُفية؟

قد يتساءل المسلمُ لماذا هاجرَ الرسولُ ﷺ مستخفياً، مع أخذه بكل أسباب الحيطة، بينما هاجر (عمرُ) رضي اللَّه عنه علانيةً، متحدِّياً بذلك المشركين، دون

(١) انظر صحيح البخاري ٢/ ٣٣٤ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٨ ومسند أحمد ٢٠/ ٢٨٢.

خوف أو وَجَل؟ هل يمكن أنه يكونَ عمرُ أشدَّ جرأةً وشجاعةً من النبيِّ ﷺ؟

والجوابُ: أنَّ تصرُّفَ عمر، كان باجتهادٍ شخصيٍّ، لأنه يريد بعمله هذا، إظهارَ عزةِ المسلم، وتحدِّي المشركين، ولذلك اختار ما يتفق مع قوة إيمانه، وجرأةِ عزيمته، وتصرُّفهُ تصرُّفٌ شخصيٌّ، لا حجةٌ تشريعية!!

أمّا رسولُ الله ﷺ فجميعُ تصرفاته المتعلِّقة بالدِّين، تعتبرُ تشريعاً للأمة، لأن أقواله، وأفعاله، وتصرفاته، تشريع ديني، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] فلو أنه فعل كما فعلَ عمرُ، لظنَّ الناسُ أن هذا هو الواجبُ، وأنه لا يجوز للمسلم أن يستخفيَ بدينه عن أعين الأعداء، ولا أن يأخذَ بالحِيطة والحَذَر، مع أن أمورَ الحياةِ كلَّها، قائمةٌ على الأخذ بأسباب النجاة والحذر!

الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب والحَذَر

استعملَ الرسولُ ﷺ جميعَ الأسباب، والوسائلِ الماديّة، حتى لم يترك وسيلةً من هذه الوسائل، إلَّا أخَذَ بها، فخرج من بيته خُفيةً، ودخلَ الغارَ، فاختفى فيه ثلاثةَ أيام، واستأجر من يَدُلُّهُ على الطريقِ إلى المدينة، وحَمَلَ معه الزَّادَ، الذي يكفيه في هذا السفر، ليوضِّح للمسلمين أن الإيمانَ باللَّهِ عزَّ وجلَّ، لا ينافي استعمالَ الأسبابِ الماديَّةِ، التي أراد اللَّه جلَّ وعلا أن تكون أسباباً، ولكنه بعد أن استنفَدَ الأسبابَ الماديَّة كلَّها، ووصل المشركون إلى الغار، الذي هو فيه مع صاحبه (أبي بكر) وخاف أبو بكر أن يعثر عليهما المشركون، عاد قلبُه متَّصِلاً باللَّه، فقال للصدِّيق: (يا أبا بكر ما ظنُّك باثنينِ اللَّهُ ثالثُهما)!؟

هذه نبذة يسيرة عن هجرة سيد المرسلين ﷺ استوحيناها من صحيح الإمام البخاري ومن السيرة النبويَّةِ العطرة، على صاحبها أفضلُ الصلاة والتسليم.!

* * *

قصة إسلام عمّار بن ياسر رضي الله عنه

٢٨

(عمَّارُ بنُ ياسر) صحابيٌّ جليل من أسرة كريمة مؤمنة، دخلت في الإسلام من بداية (الرسالةِ المحمدية) على صاحبها أفضلُ الصلاة والتسليم، ونالها الكثيرُ من العذابِ والبلاء، في سبيل اعتناقها لهذا الدين الجديد، ولكنها تحمَّلت كلَّ تلك الشدائد، رغبة في رضوان اللَّه تعالى.

أسلَمَ أبوه (ياسرٌ) وأمُّه (سُمَيَّة) وأسلَمَ (عمّار) رضي اللَّه عنهم جميعاً، ولمَّا سمع المشركون بإسلام هذه الأسرة، أخذوا الجميع فعذَّبوهم عذاباً شديداً، لا يكاد يُطاق، ليفتنوهم عن دينهم، ويردُّوهم عن الإسلام، وقد كان رسولُ اللَّه ﷺ يمرُّ على هذه الأسرة المؤمنة المستضعفة، وهي تئنُّ تحت سياط العذاب، فيواسيهم صلواتُ اللَّه عليه بقوله: (صَبْراً آلَ ياسر، صَبْراً آلَ ياسر، فإنَّ موعدكم الجنةُ)[١].

(سُمية أم عمّار) أولُ شهيدة في الإسلام

أمّا أمُّه (سمية) المؤمنة المجاهدة، فقد لاقت وجه ربِّها، بعد أن طعَنَها عدُوُّ اللَّهِ (أبو جهل) بحربةٍ في قُبُلها ـ أي طعنها في بطنها حتى وصلت إلى فرجها ـ فماتت من أثَرِ تلك الحَرْبة الحادة، وكانت أوَّلَ شهيدةٍ في الإسلام.!

روى الإمام أحمد عن مجاهد أنه قال: (أوَّلُ شهيدٍ كان في أول الإسلام اسْتُشهد، أم عمَّارٍ (سُمَيَّة) رضي اللَّه عنها، طعنها (أبو جهل) بحربةٍ في قُبُلِها)[٢].

---

(١) راجع كتاب فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص١٤٥ ففيه إشراقات مضيئة من سيرة خاتم المرسلين ﷺ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وانظر حياة الصحابة ١/ ٢٤٢.

استشهاد ياسر تحت العذاب

ومات (ياسر) كبيرُ الأسرة تحت العذاب، فلم يزل المشركون يعذِّبونه بالسِّياط، ويَكْوونَهُ بالنار، حتى لفَظَ أنفاسَه الأخيرة، تحتَ وطأة العذاب، وأسلَمَ روحَه للَّه، فلحِقَ بزوجته (سُميَّة) شهيداً في سبيل اللَّه.!

رُوي عن عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه أنه قال:

(بينما أنا أمشي مع رسولِ اللَّه بالبطحاء ـ يريد وديانَ مكة ـ إذْ أنا بعمَّارٍ، وأبيه، وأمِّه، يُعذَّبون في الشمس، ليرتدُّوا عن الإسلام!!

فقال ياسر (أبو عمَّار): يا رسولَ اللَّه، الدَّهْرَ كلَّه ـ!؟ أي نبقى طول حياتنا تحت العذاب هكذا ـ فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: صبراً يا آلَ ياسر، اللهمَّ اغفرْ لآلِ ياسر، وقد فعلتَ)[1].

قولُه ﷺ: (وقد فعلتَ) إخبارٌ من الرسول ﷺ، بأن اللَّه استجابَ دعاءَه، وغفرَ لآلِ ياسرٍ، لأهلِ هذه الأسرة المؤمنة الكريمة، ففي الحديث بشارةٌ لهم بالمغفرة، على صبرهم، واحتسابهم الأجر عند اللَّه تعالى.

عمَّار يستجيب تحت وطأة العذاب

وأمَّا عمَّار بنُ ياسر رضي اللَّه عنه فقد كان شاباً وتحمَّل ضروب العذاب، حتى لم يعُدْ يطيقُ الصَّبْرَ على ما نزل به من صنوف العذاب، فأعطاهم ما طلبوه من النيل من رسول اللَّه ﷺ، ومدْحِ آلهتهم وأوثانهم بخير.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده أنه قال: (أخذ المشركون عماراً رضي اللَّه عنه، فلم يتركوه حتى سبَّ رسولَ اللَّه ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلمَّا أتى رسولَ اللَّه ﷺ يبكي، قال له ﷺ: ما وراءك يا عمَّار؟ ـ أي ماذا جرى لك، وماذا فعلوا بك؟ ـ قال: شرٌّ يا رسول اللَّه!!

ما تركوني حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير!!

فقال له رسولُ اللَّه ﷺ: كيف تجد قلْبَك؟

قال: أجدُه مطمئنًّا بالإيمان ـ أي أجدُ حلاوة الإيمان في قلبي ـ فقال له ﷺ: فإنْ عادوا فعُدْ)[2] أي إن عادوا إلى إكراهك على (كلمة الكفر)، فعُدْ إلى القول بما يُرْضيهم، ولا يضرُّك ذلك أبداً.!

---

(١) رواه أحمد كما في البداية والنهاية ٣/ ٥٩.

(٢) أخرجه ابن عساكر والحاكم في الكُنى، وانظر كتاب حياة الصحابة ١/ ٢٤١.

وفي هذه الحادثة نزلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

رواية الحافظ ابن كثير

قال الحافظ ابن كثير: في روايته عن ابن عباس أنه قال:

أخذ المشركون (عمّارَ بنَ ياسرٍ) فعذّبوه، حتى أجابهم إلى ما طلبوا، ووافقهم على ذلك تكرُّهاً، وجاء معتذراً إلى النبيِّ ﷺ فنزلت الآية: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

وفي رواية أخرى أنه سبَّ النبيَّ ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فقال له النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، فقال له ﷺ: إن عادوا فعُدْ)[1] وفي ذلك نزلت الآية الكريمة.!

ثم قال رحمه الله: وقد اتفق العلماء على أن المُكْرَهَ على الكفر، يجوز له أن ينطق به، إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان (بلالٌ) رضي اللّه عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعونَ الصخرةَ العظيمةَ على صدره، في شدة الحرّ، ويأمرونه بالشرك باللّه، فيأبى عليهم، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ.

ويقول: واللّهِ لو أعلمُ كلمةً هي أغيظُ لكم ـ أي تُغيظُكم أكثرَ من هذه الكلمة ـ لقلتها لكم، رضي اللّه عنه وأرضاه.

❊ ❊ ❊

(١) الحلية لأبي نُعيم ١/ ١٤٠ وأخرجه ابن سعد ٣/ ١٧٨.

قصة الصحابي (حبيب الأنصاري)

وشبيه بهذا ما حدث للصحابيّ الجليل (حَبيب الأنصاري) فإنه لمَّا وقع في الأسر، وأُتي به إلى (مُسَيلمة الكذَّاب) قال له: أتشهدُ أني رسولُ اللَّه، فيقول: إنِّي لا أسمعُ، ماذا تقول؟

فإذا سأله أتشهدُ أن محمداً رسولُ اللَّه؟ فيقولُ: نعَمْ، نعَمْ، ويعيد عليه: أتشهد أني رسولُ اللَّه؟ فيقول له: لا أسمع، ماذا تقول؟ فيسأله أتشهد أن محمداً رسولُ اللَّه، فيقول: نعم، نعم!! فلم يزلْ عدوُّ اللَّه يقطِّعه إرْباً إرْباً ـ أي قطعةً قطعة ـ وهو ثابتٌ على ذلك.

قال: والأفضل والأولى أن يثبت المسلمُ على دينه، ولو أفضى ذلك إلى قتلِهِ)[1].

شجاعة عمَّار رضي اللَّه عنه

وفي معركة اليمامة أبلى (عمَّارُ) رضي اللَّه عنه بلاءً حسناً، فإنه كان ينقضُّ على الأعداء، كالأسَد الهَصُور، لا يبالي بجراحةٍ ولا قتْل.

يقول عبد اللَّه بن عمر: رأيتُ (عمَّارَ بنَ ياسر) رضي اللَّه عنه يوم اليَمَامة، قائماً على صخرةٍ، وقد أشرف يصيح: يا معشرَ المسلمين، أمِنَ الجنة تفرُّون؟ أمنَ الجنة تفرُّون؟ أنا عمَّارُ بنُ ياسر، أنا عمَّارُ بنُ ياسر!! هلمَّ إليَّ!

قال ابن عمر: وأنا أنظر إلى أُذنه قد قُطِعتْ وهي تتذَبذَبُ ـ أي تتدلَّى من رأسه ـ وهو يقاتل أشدَّ القتال[2].

وفي (معركة صِفِّين) كان (عمَّار) بطلاً مغواراً، يقاتل بكل بسالةٍ وشجاعة، لا يفكِّر بالموتِ، ولا يُبالي بالقتل، غرضُه أن يحظى بالشهادة في سبيل اللَّه، وما كان يقاتل في صفِّ (عليٍّ) كرَّم اللَّهُ وجهه ـ أي معه ـ إلَّا لعلمه بأن الحقَّ كان مع عليٍّ، ولهذا كان يردِّد في هذه المعركة: اليوم ألقى الأحبَّة، محمداً وصحبَه!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٤.

(٢) مختصر تفسير الحافظ ابن كثير ٢/ ٣٤٤.

شهود عمار معركة صفّين

روى ابنُ جرير عن (عبد الرحمن السُلمي) أنه قال:

(شهدتُ صِفّينَ مع عليٍّ رضي اللّه عنه، ورأيتُ عمّاراً لا يأخذ وادياً من أودية صِفّين، إلا اتّبَعه من كان هناك من أصحاب رسولِ اللّه.!

ورأيته جاء إلى (هاشم بن عُتْبة) وهو صاحبُ راية (عليّ) رضي اللّه عنه، فقال له: **يا هاشمُ تقدَّمْ، الجنّةُ تحت ظلالِ السيوف، وقد فُتحتْ أبوابُ الجنّة، وتزيّنتِ الحورُ العينُ، اليومَ ألقى الأحبة، محمداً وحِزْبه، ثم حَمَل هو و(هاشم) على الأعداء، فقُتلا رحمهما اللّه تعالى، وهذه من معجزات النبوة (تقتلُكَ الفئةُ الباغية).**

ولقد تحقّقت فيه نبوءةُ سيد المرسلين ﷺ، حين قال:

(يا ويحَ عمّار!! تقتلُه الفئةُ الباغيةُ، هو يدعوهم إلى الجنة وهم يدعونه إلى النار)[1]. وفي رواية لمسلم (أبشرْ عمّارُ تقتلُك الفئة الباغية).

ودلّ قولُه ﷺ: (تقتُلك الفئةُ الباغيةُ) على أن الحقَّ كان في جانب (علي) رضي اللّه عنه، فقد كان (عمّار) يقاتل في جيش عليٍّ، والذين قتلوه كانوا من (الفئةِ الباغية) بنصّ الحديث الشريف.!

ولهذا رأينا بعضَ الصحابة، يَتْبعون عمّاراً أينما سار، لأنهم يعلمون أنه سيُقتل مظلوماً، وستقتلُه (الفئةُ الباغيةُ) وكان عمار حين استُشهد، في صفّ (عليّ) بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وهذا الخبرُ من معجزات النبوّة، لأنه إخبارٌ عن أمرٍ غَيبيٍّ، فقد قُتِل (عمّار) شهيداً، وصدق رسولُ اللّه فيما أخبر به عن عمّار رضي اللّه عنه وأرضاه.

ثناء الرسول ﷺ على عمّار

لم يَنْسَ رسولُ اللّه ﷺ المواقفَ المشرّفة (لعمّارِ بنِ ياسر) لثباته على الإيمان، وتحمله الشدائد والآلام في نصرة دين اللّه، فكان إذا جاءه (عمّار) يُكرمه ويُدنيه منه، ويخبر عنه أنه الطيّب المطيَّب.

روى الترمذيُّ عن علي رضي اللّه عنه أنه قال: (استأذن عمار على النبي ﷺ، فقال: ائذنوا له، مرحباً بالطيِّب المطيَّب)[2] أي بالطاهر المطهَّر.

وقال رسول اللّه ﷺ: (اقتدوا باللّذَيْنِ من بعدي من أصحابي (أبي بكر)

---

(١) أخرجه الحاكم ٣/ ٣٨٥ وابن سعد ٣/ ١٨١ وانظر حياة الصحابة ١/ ٤٥٤.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، والطبراني، وأحمد، وانظر البداية والنهاية ٧/ ٢٧.

و(عمر) واهتدوا بهَدْي (عمّار) وتمسّكوا بعهد (ابن مسعود)[1] رضي اللّه عنهم جميعاً.

رحمَ اللّهُ عماراً، وأسكنه فسيح جناته، بما لاقى في سبيل الإسلام، من صنوف الأذى والبلاء، وهنيئاً له بالشهادة في سبيل اللّه، فقد عاش مجيداً، وقُتل شهيداً.

الدروسُ والعِبَرُ من غزوة أُحد

في غزوة أُحدٍ دروسٌ وعبَرٌ، ينبغي أن يقفَ عندها الدّارسُ للمغازي والسِّيَر، وقفةَ تأمّلٍ وتفكير، ليستجلي ما فيها من عظاتٍ وعِبَر، فالتاريخُ مدرسةٌ مفتوحةُ الأبواب، يأخذ منها المفكّر أروعَ الدروس، وأبدعَ الأخبار.

وجوب الطاعةِ للقيادة النبوية

أوّلُ درس من هذه الغزوة، أمام هذا الإعداد الهائل للجيش النبوي، أنه تجب الطاعةُ الكاملةُ للقائد الأعلى للجيش، فلقد كان رسولُ اللّه ﷺ في تلك الغزوة، هو الذي نظّم الجيشَ، وحدّدَ واجباته وأعمالَه، وقال للرُّماة الماهرين الخمسين، الذين وظّفهم لحماية جيش المسلمين، قال لهم: قفوا على هذا الجبل، واحموا ظهورنا، ولا تُبارحوا أماكنكم، ولو رأيتمونا تخطّفتنا الطيرُ.!

إن رأيتمونا انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، ولا تبْرحوا أماكنكم حتى آذنَ لكم!!

وفي هذه الأوامر العسكرية الشديدة، سدَّ رسولُ اللّه ﷺ الفتحةَ، التي كان يمكن لفرسان المشركين، أن يتسلّلوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بعملية التطويق لجنود الرحمن.

خُطّةٌ حكيمة تتجلّى فيها عبقرية الرسول ﷺ

ولقد كانت خطةً حكيمة ودقيقة جداً، تتجلّى فيها عبقريةُ قيادةِ النبي ﷺ العسكرية، وأنه لا يمكن لأي قائد عسكر، مهما بلغ من الدقة والنبوغ، ومهما تقدمت كفاءتُه، أن يضع خطّة أدقَّ وأحكمَ من هذا.!

فقد احتلّ ﷺ أفضلَ موضعٍ من ميدان المعركة ـ مع أنه نزل فيه بعد العدوّ ـ

(١) رواهما الترمذي بسند صحيح.

فقد حمى ظهره بارتفاعات الجبل، وجعل عن يمينه وشماله جنوده البواسل، وألجأ أعداءه أن يكونوا في موضع منخفض، لذلك أكّد ﷺ على الرُماة ألّا يفارقوا أماكنهم، مهما كان الوضعُ، سواء انتصروا أو انهزموا.

غزوة أُحد كما في صحيح البخاري

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال:

(لقينا المشركين يوم أُحد، وأجلس النبيُ ﷺ من الرُماة، وأمَّرَ عليهم «عبدَ اللّهِ بنَ جُبَيْر» وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم ـ أي انتصرنا عليهم ـ فلا تبرحوا أماكنَكُم، وإن رأيتموهم ظهروا علينا ـ أي غلبونا ـ فلا تُعينونا!

قال البراءُ: فلمّا لقيناهم، واحتدمت المعركةُ هربوا، حتى رأيتُ النساءَ يشتَدِدْنَ في الجبل ـ أي مسرعات في الهرب ـ رفعْنَ عن سُوقهنَّ، قد بدَتْ خلاخلُهنَّ!!

فأخذ الرماةُ يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال لهم رئيسهم «عبدُ اللّهِ بنُ جُبَير»: عهِد إلينا النَّبيُ ﷺ أن لا تبرحوا!!

فأبوا أن يطيعوه، فلمّا أبَوْا صُرف وجوهُهم ـ أي جاءتهم النَّكسةُ والهزيمةُ ـ فأُصيبَ من المسلمين سبعون قتيلاً..)[1] الحديث.

هزيمة المسلمين بعد انتصارهم

وفي هذه المعركة (معركة أحد) جاءتهم الهزيمةُ، بعد النصر المبين، الذي كان للمسلمين، وكان درساً أليماً مفجعاً حلَّ بهم، سببُه مخالفتُهم أمرَ القائد الأعلى (محمد) رسولِ اللّه ﷺ، الذي حذَّرهم من ترك الجبل، سواء كان النصر للمسلمين أو الهزيمة لهم.

أمّا قائدهم «عبدُ اللّه بنُ جُبير» فقد ذكَّرهم أوامرَ رسولِ اللّه ﷺ، وقال لهم: أوَ نسيتم ما قال لكم الرسولُ الكريم عليه أفضلُ الصلاة والتسليم؟ ولكنَّهم لم يسمعوا له، وقالوا: لقد انتصر إخواننا فما فائدة بقائنا؟ ونزلوا لجمع الغنائم، ولم يبق مع رئيس الرماة (ابن جُبَير) إلّا تسعةٌ من أصحابه، التزموا مواقفَهم، مصمّمين على البقاء حتى يأذن لهم رسولُ اللّه ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٠ باب غزوة أُحد.

خُلُوُّ الجبل من الرُّماة

ولمّا خلا الجبلُ من الرماة، جاءت الكارثة والفاجعة لجيش المسلمين، فقد رأى «خالدُ بنُ الوليد» ـ وكان في ذلك الوقت مشركاً ـ فراغَ الجبل من الرماة، وانتهز هذه الفرصة الذهبيَّة، واستدار بسرعةٍ خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة جيش المسلمين، وتَبِعه بعضُ فرسان المشركين، معهم «عِكرمةُ بنُ أبي جهل» فانقضُّوا على المسلمين من خلفهم، ولم يلبثوا أن أبادوا «عبدَ اللَّهِ بنَ جُبير» وأصحابَه الرماة التسعة، الذين كانوا على الجبل، ونزلوا يقتلون المسلمين، حتى قُتل منهم في ذلك اليوم (٧٠) سبعون رجلاً، من خيرة صحابةِ رسول اللَّه ﷺ، من جملتهم «حَمْزةُ بنُ عبد المطلب» سيِّد الشهداء، و«مصعبُ بن عُمَير» و«أنسُ بنُ النَّضْر» عمُّ أنسِ بنِ مالك، وغيرُهم من أبطالِ المسلمين الشجعان.!

سبب نكسة المسلمين في أُحُد

هذا سببُ هزيمة المسلمين يوم أحد، سبَّبها لهم مخالفةُ أمر القائد الملهم «محمد بن عبد اللَّه» صلوات اللَّه وسلامه عليه، وهذه الغلطةُ الفظيعة «غلطةُ الرُّمَاةِ» هي التي قلبت الموازينَ يوم أُحد، وأدَّتْ إلى إلحاقِ الخسائر الفادحة بالمسلمين، حتى كادت تكون سبباً لمقتل الرسولِ ﷺ، لولا أن أحاطَ به ثُلَّةٌ من الأبطال الشجعان، جعلوا أنفسهم كالتُّرس على رسول اللَّه ﷺ، وراحوا يقدِّمون أرواحهم، رخيصةً دون رسول اللَّه ﷺ حتى قُتل معظمهم.!

أبو طلحة الأنصاري يفدي بنفسه الرسول ﷺ

روى البخاريُّ عن أنس رضي اللَّه عنه أنه قال:

(لمَّا كان يومُ أُحد، انهزم الناسُ عن رسول اللَّه ﷺ، و(أبو طلحةَ) بين يدي النَّبيِّ ﷺ مجوِّبٌ عليه ـ أي متترسٌ بنفسه عليه كالترس يحميه ـ وكان أبو طلحةَ رجلاً رامياً، شديدَ النَّزع ـ أي الرمي بالنبال ـ كسَرَ يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرُّ معه جُعْبةٌ من النَّبْل، فيقول له الرسولُ ﷺ: انثُرْها لأبي طلحة.!

وكان ﷺ يشرفُ على القوم ينظر إليهم، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ اللَّه، لا تُشرفْ ـ أي لا ترفعْ رأسك عالياً ـ يُصبْكَ سهمٌ من سهام القوم، نَحْري دونَ نَحْرك)[1].

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٣ باب غزوة أُحُد.

مظهر رائع للتضحية والفداء

ولقد تجلَّى في هذه المعركة، مظهرٌ رائع للتضحية والفداء، ممن كانوا حول رسول اللَّه ﷺ، فقد أحاط بالرسول المشركون، ولم يكن مع الرسول إلَّا تسعةُ نَفَر، وجرى بين المشركين وبين التسعة حربٌ شديدة، وعِراكٌ عنيفٌ، ظهرت فيه بوادرُ الحبِّ والتفاني، وتقديمُ الروح فداءً لرسول اللَّه ﷺ.

روى مسلم عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ أُفرِدَ في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش ـ أي من المهاجرين ـ فلمَّا أَرْهقُوه، قال: من يردُّهم عنا وهو رفيقي في الجنة!! فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم أرهقوه أيضاً فلم يزل كذلك، حتى قُتل السبعةُ، فقال رسولُ اللَّه لصاحبيه: ما أنصفْنَا أصحابَنا)[1].

كان آخر هؤلاء السبعة (عُمارةُ بن يزيدَ) قاتلَ دون النبيِّ ﷺ حتى سقط من كثرة الجراح، فوسَّده الرسولُ قَدَمه، فمات وخدُّه على قدم رسول اللَّه ﷺ.

ما نزل من القرآن في هذه الغزوة

لقد كانت غلطةُ الرماة الفظيعة، سبباً لنكبة المسلمين في أُحد، وتنزَّل الوحيُ السماويُّ، يوجِّه المؤمنين إلى ضخامة هذه القضية، التي سبَّبتِ الهزيمة، بعد النصر الساحق، الذي ناله المسلمون في بدء المعركة ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] **هذا هو الدرس الأول، الذي نبَّهت إليه الآية الكريمة**، أن سبب النكبة والمصيبة الفادحة، هي المخالفة والعصيان لأمر الرسول ﷺ.

ابتلاء وتمحيص للمؤمنين في أُحد

الدرس الثاني: أمَّا الدرسُ الثاني الذي نستخلصه من هذه الغزوة، فهو تمحيصُ المؤمنين عن أخلاطهم من المنافقين، والتمييزُ بين أهل الإيمان وأهل النفاق، والحياة كلُّها قائمةٌ على سنة الابتلاء والتمحيص، كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] فلقد رأينا كيف انخذل «عبد اللَّه بن أُبيّ» المنافق، وانسحب بثلاثمائة مقاتل، قائلاً: ما ندري علامَ نقتل أنفسنا؟ متظاهراً

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٠٧.

بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ، ترك الأخذ برأيه، وأطاع غيره، وكرّ راجعاً وهو يقول: (عصاني وأطاع الولدانَ، ومن لا رأي له).!

وهذه خيانةٌ مؤلمة، حيث أدخل البَلْبلة إلى صفوف المقاتلين.

ولا شك أن سبب هذا الانعزال، والرجوع من الطريق، لم يكن هو ما أبداه هذا المنافقُ، من رفض الرسول لرأيه، والأخذ برأي الشباب، وإلّا لم يكن لخروجه مع الرسول ﷺ بجماعته معنى، بل لو كان هذا هو السبب، لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، وإنما كان هدفُه من هذا التمرُّد، هو إحداثُ «البَلْبلة» بين صفوف المسلمين، وهم على مرأى ومسمع من أعدائهم المشركين، حتى تنهار معنوياتُ الجيش الإسلامي، وهم يرون أنفسهم قلةً قليلة/ ٧٠٠/ سبعمائة مقاتل من المسلمين، مقابل/ ٣٠٠٠/ ثلاثة آلاف من المشركين، جاءوا يريدون القضاء عليهم، في عُقر دارهم.

الرجوعُ كاد يدمّر جيش المسلمين

كاد رأسُ النفاق (ابنُ سلول) أن ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همَّتْ طائفتان من المؤمنين أن ترجعا، لكثرة ما رأت من الأعداء، وهما (بنو حارثة) من الأوس، و(بنو سَلَمة) من الخزرج، ولكنَّ اللّهَ ثبّتهما على البقاء، وعدم الرجوع والانسحاب، وفيهم نزلت هذه الآية ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

روى البخاري عن جابر رضي اللّه عنه أنه قال: (نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بني سَلَمة، وبني حارثة، وما أحبُّ أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1].! أي ناصرهما ومتولي أمرهما، ولهذا الثناء موقعٌ في نفوس المؤمنين عظيم.!

ما نزل من الآيات في المنافقين

وحين عزم رأسُ النفاق (ابنُ سلول) بالعودة بثلث الجيش تقريباً، تبعهم «عبدُ اللّه بنُ حرام» والدُ جابر رضي اللّه عنهما، يناشدهم اللّهَ أن لا يخذلوا نبيَّهم، فلم يستجيبوا لندائه، وقال زعيمهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فرجع عنهم عبد اللّه وهو يقول: أبعدَكم اللّهُ أعداءَ اللّه، فسيُغْني اللّهُ عنكم نبيَّه.!

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٢ كتاب المغازي.

وفي هؤلاء المنافقين، يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

هذا هو الدرس الثاني نستخلصه من (غزوة أحد) وهو كشفُ أحوال المنافقين، والتمييزُ بين أهلِ الإخلاص والإيمان، وأهل النفاق والطغيان.

النصر لا يأتي بكثرة العَدَد والعُدَد

الدرسُ الثالث: أمّا الدرسُ الثالث من العِبَر والعظات، فهو أن النصر ليس بكثرة العَدَد، ولا وفرة العُدَد، وإنما هو بالتأييد الإلٰهي ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فالمسلمون في (غزوة أُحد) لم يكن عددهم يزيد على سبعمائة، انتصروا على المشركين، وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل في بدء المعركة ـ وما كان النصرُ حليفهم، إلّا لأنهم يحملون عقيدة الإيمان، ويجاهدون نصرةً لدينِ اللّٰه، ولم يكن الدافعُ لهم إلى القتال (العصبيّةُ الجاهليّةُ) كما هو حالُ المشركين، لذلك انتصروا على أعدائهم نصراً مُذْهلاً، وما جاءهم البلاءُ، وحلّتْ بهم الكارثة، إلّا عندما خالفوا أمرَ الرسول ﷺ وتركوا الجبلَ، واشتغلوا بجمع الغنائم، فانقلبَ النصرُ إلى هزيمة.

وإذا لم يكن الغرضُ سامياً، ودخلت إليه المكاسبُ والأهواء، المنافيةُ للإخلاص، انتكس الإنسانُ إلى الوراء، وحلّت الكارثة.!

الخطر يُحدِقُ بالرسول ﷺ

قال الصحابيُ الجليلُ عبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنه:

(إنَّ النساءَ يومَ أُحُدٍ، كُنّ خلفَ المسلمين، يُجْهِزْنَ على جرحى المشركين، فلو حلفتُ يومئذٍ لرجوتُ أنْ أَبَرَّ بيميني ـ أي صادقاً في الحلف ـ أنه ليس أحدٌ منّا يريدُ الدنيا، حتى أنزلَ اللّٰهُ على رسوله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فلمّا خالف أصحابُ رسولِ اللّٰه، وعصَوْا ما أُمِروا به، أُفْرِدَ الرسولُ في تسعةٍ من الرجال، هو عاشرهم ـ أي لم يبقَ معه إلّا تسعةُ أشخاص ـ!!

فقال الرسول ﷺ: رحمَ اللّٰهُ امرأً ردّهم عنا، فقام رجلٌ من الأنصار، فقاتل

ساعةً حتى قُتل، فلم يزل يقول ذلك، حتى قُتل سبعةٌ منهم، فنظروا فإذا (حمزةُ) قد بُقِرَ بطنُه، فأخذتْ هندٌ ـ امرأةُ أبي سفيانَ ـ كَبدَهُ فَلَاكَتْها، فلم تستطع أن تأكلَها، وحزِنَ عليه الرسول حزناً شديداً)[1].

كان حمزةُ يُسمَّى أسدَ اللَّه، وأسدَ رسوله، وهو من عظماء الأبطال، رحمه اللَّه تعالى وأسكنه فسيح جناته، بما قدَّم للإسلام والمسلمين، من بطولات وتضحيات!!

(١) أخرجه أحمد في المسند.

قصةُ (سَمُرَةَ) و(رافع بن خديج)

٢٩

الدرسُ الرابع: أمَّا الدرس الرابعُ فهو (البطولةُ الرائعةُ) من الأطفال والرجال، التي لا نجدها عند غير المسلمين، مهما كانت فيهم الشجاعة.!

١ ـ فَتَيَان من فِتْيانِ المسلمين، في ريعان الشباب، لا يتجاوز عمر أحدهما خمس عشرة سنة، يتسابقان نحو المعركة، يريدان الفوزَ بالشهادة، هما (رَافِعُ بن خَديج) و(سَمُرَةُ بنُ جُنْدب) جاءا يناشدان رسولَ اللَّه ﷺ أن يسمح لهما بالاشتراك في القتال، قتالٌ قائمٌ على التأهُّب للموتِ، ولكنَّ رسولَ اللَّه ﷺ الرحيمَ، ردَّهما لصغر سِنِّهما شفقةً عليهما.!

بكى «رافع» وقال: يا رسولَ اللَّه، أَتَرُدُّني وأنا أتقنُ الرَّمْي؟ وشهِدَ له بعضُ الصحابة بإجادة الرمي، فأذِنَ له رسولُ اللَّه ﷺ بالمشاركة في المعركة وأجازه.

ونظر الثاني (سَمُرة) إلى رسول اللَّه ﷺ **باستغراب، ودمعتْ عيناه**، وقال: يا رسول اللَّهِ، أجزتَه ومنعتَني!؟ وأنا أقوى منه قوَّةً!! إن شئتَ يا رسولَ اللَّهِ صرعتُه أمامك!!

فتصارعا فصرَعَهُ وألقاه على الأرض، فأذن لهما في القتال، وردَّ بعض الفتيان (ابن عمرَ، وأسامةَ بنَ زيد، والبراءَ بن عازب، وزيدَ بن ثابت) لعدم بلوغهم سنَّ الرُّشد، وأجازهم يوم الخندق، وهم أبناءُ خمسَ عشرةَ سنة[1].!

---

(١) انظر تهذيب السيرة لابن هشام ص١٧٩.

بطولات رائعة
من صحابة الرسول رضوان الله عليهم

٣٠

٢ ـ وفي غزوة أُحد، قام المسلمون ببطولات رائعة ونادرة، لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، فقد كان (أبو طلحة الأنصاري) بين يدي الرسول ﷺ ينْحني عليه، ويرفعُ صدره ليَقيَهُ من سهام المشركين، ويجعل ظهره تِرْساً تنهال عليه السِّهامُ، خشيةَ أن يصيبَ شيءٌ منها الرسولَ ﷺ.

قال أنس: لمَّا كان يوم أحد، انهزم الناسُ عن النبي ﷺ (وأبو طلحة) بين يدي النبيّ ﷺ متترِّسٌ عليه ـ أي جعل نفسه كالترس يحميه ـ ويقول له: بأبي أنت وأمّي، لا يصيبُك سهمٌ من سهام المشركين، نَحْري دون نحرك)[1].

وقال أنس رضي الله عنه: لقد وقع السيف من يَدَيْ (أبي طلحة) مرتين أو ثلاثاً.

وقال قيسٌ: رأيتُ يدَ أبي طلحة شلّاء، وقى بها النبيَّ ﷺ يوم أُحد[2].

٣ ـ أمّا (أبو دُجانة) رضي الله عنه فقد قام أمام رسول الله ﷺ، وحماه بظهره، والنبلُ يقع عليه بشدّة، وهو لا يتحرّك، خشيةَ أن يصيب رسولَ الله ﷺ شيء من السهام.

٤ ـ وكان رجلٌ من المشركين اسمُه (عُتبةُ بن أبي وقاص) أخو سعد بن أبي وقّاص، قد كَسَر رباعيةَ النبيّ ﷺ ـ السنَّ الشريفةَ التي بجوار النّاب ـ وأسالَ من وجهه الدَّمَ، فتبعَهُ (حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعة) فضربَهُ بالسيف، حتى طرَح رأسَه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان (سعدٌ) رضي الله عنه شديدَ الحرص على قتل أخيه، فلحقه فلم يظفر به، وإنما ظَفر به (حاطبٌ) فقتله.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٢٣.

بطولة مصعب بن عُمير رضي اللّه عنه

٥ ـ قاتل الشابُّ المؤمن (مصعبُ بنُ عُمير) المشركين بضراوةٍ بالغة، يدافعُ عن النبيِّ ﷺ، هجومَ (ابن قَمِئة) عدوِّ اللّه وأصحابه، الذين أحاطوا بالرسول، وكان اللواءُ بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قُطِعتْ، فأخذَ اللواء بيده اليسرى، وصَمَد في وجوه الكفار، حتى قُطعتْ يدُه اليسرى.

ثم احتضن اللّواء بصدره وعُنُقه حتى استُشهد، وكان الذي قتلَه هو (ابنُ قَمِئة) وهو يظنُّه رسولَ اللّه لشَبَهه الكبيرِ به، فانصرف عدوُّ اللّه (ابن قَمِئة) وهو يصيح بأعلى صوته: قُتِل محمدٌ، قُتل محمدٌ!! وما كان المقتول يومئذٍ إلّا (مُصْعبَ بن عُمير).

وفي هذه الإشاعة تنزلت آيُ الذِّكر الحكيم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الإيمان الصادق سبب البطولات

٦ ـ إن سرَّ هذا الإقدام على الموت، من أمثال هؤلاء الرجال والأطفال، إنما هو الإيمانُ العظيمُ الذي استحوذ على قلوبهم، والحبُّ الصادق لرسول اللّه ﷺ، حتى كانوا يقدِّمون أرواحهم رخيصة، في سبيل الدفاع عن رسول اللّه ﷺ، حتى ولو كان من وراء ذلك، بذلُ الأرواح والمُهَج.

فهذا (سعدٌ) و(طلحةُ) يكافحان أشدَّ الكفاحِ عن رسول اللّه ﷺ، ويقيمان سياجاً من أجسامهم حوله، وقايةً له ﷺ من ضرباتِ العدوِّ، وردِّ هَجَماته[1].

(١) انظر الرحيق المختوم في السيرة النبوية للمباركفوري ص٣١٩.

قصة قتادة بن النعمان رضي الله عنه

٣١

٧ ـ وهذا هو (قتادةُ بن النعمان) يقف وجهاً لوجه أمام الأعداء، يحمي رسولَ اللَّه ﷺ فتصابُ عينُه حتى تقع على وجنته، فيردُّها الرسولُ ﷺ له بيده، حتى صارت أحسن عينيه وأحدَّهما ـ أي أقواهما نظراً ـ.

* * *

قصة مالك بن سنان رضي الله عنه

٨ ـ وامتصّ (مالكُ بن سنان) والد (أبي سعيد الخدري) الدمَ من وجنته ﷺ حتى نَقِيَ الدمُ، ولكنه من حبِّه الشديد للرسول لم يَمُجَّه، بل ابتلعه، ثم أقبل يقاتل، فقال النبي ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة، فَلْينظُرْ إلى هذا!فقُتل شهيداً[1].

(١) انظر الرحيق المختوم في السيرة النبوية للمباركفوري ص٣١٩.

حبّ شديد من الأنصار لرسول الله ﷺ
قصة سعد بن الربيع رضي الله عنه

(٣٢)

٩ ـ ولْنقف قليلاً عند هذه القصة، التي تفيض بالروعة والحبِّ الفيَّاض للرسول الأعظم ﷺ فقد روى ابن هشام في السيرة النبوية (أن النبي ﷺ قال لأصحابه: منْ رجلٌ ينظر لي ما فعل (سَعْدُ بنُ الرَّبيع)؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟

فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول اللَّه ما فعل سعد!؟ فنظر، فإذا هو جريح بين القتلى، وبه رَمَقٌ من الحياة.

فقال له: إنَّ رسولَ اللَّه بعثني إليك، لأنظرَ أفي الأحياء أنت؟ فأجابه سعدٌ: أنا في الأمواتِ، فأبلغْ رسولَ اللَّه عنِّي السَّلامَ، وقل له: إنَّ (سعدَ بنَ الربيع) يقول لك: جزاكَ اللَّهُ عنَّا يا رسولَ اللَّهِ خيرَ ما جازى نبيًّا عن أمته!

وأبلغْ قومك عني السلام، وقل لهم: **إن سعد بنَ الربيع يقول لكم: إنه لا عُذْر لكم عند اللَّه، إن خَلَص إلى نبيِّكم شيءٌ، ولكم عينٌ تَطْرِف!!**

قال الأنصاري: فلم أبرحْ حتى مات، فرجعتُ إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبرتُه الخبر[1].

رضي الله عن سعد، فقد دعا قومَهُ أن يقدِّموا أرواحهم فداءً لرسول اللَّه عليه أفضلُ الصلاة والتسليم، وحذَّرهم أنه لا عُذرَ لأحدٍ عند اللَّه تعالى، إنْ وصَلَ إلى رسول اللَّه شيء من الأذى، وفيهم واحد حيٌّ!!

وهكذا يكون الحب الصادق، لمن حمل إليهم هذا النُّورَ الرباني، ونقلهم من ظلمات الضلالة، إلى نور الهدى والإيمان.!

وتلك قصة أخرى، فيها أروع الأمثال، في طلب الشهادة والاستبسال، طلباً لرضوان اللَّه تعالى، ولْنستمع إلى هذه القصة الرائعة:

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ١٨٠.